# نفحات من عبق السيرة النبوية

## الدرس الثالث عشر

✉**عناصر المحاضرة:**

❶ الهجرة إلى المدينة.

❷ قصة هجرة آل سلمة.

❸ قصة هجرة عمر بن الخطاب.

❹ هجرة عياش بن أبي ربيعة.

❺قريش في دار الندوة وقرارهم بقتل النبي ﷺ

❻آثار العناية الإلهية في الهجرة النبوية.

❼ وصف أم معبد الخزاعية للنبي ﷺ.

❽ قِصّةُ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ.

📄**الهجرة إلى المدينة:**

اختار الله عزوجل المدينة داراً لهجرة النبي ﷺ، ومركزاً لدعوته إكراماً لأهلها الذين سارعوا في الدخول في الإسلام، ودعوا رسول الله ﷺ إلى بلدهم لنصرته.

✉وتناول القرآن المكّيّ التَّنويه بالهجرة، ولفت النَّظر إلى أنَّ أرض الله واسعةٌ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

✉ثمَّ تلا ذلك نزولُ سورة الكهف، والَّتي تحدَّثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرَّت صورةٌ من صور الإيمان في نفوس الصَّحابة، وهي ترك الأهل، والوطن من أجل العقيدة.

✉ثم تلا ذلك آيات صريحةٌ تتحدَّث عن الهجرة في سورة النَّحل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخرةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 41 - 42].

✉وفي أواخر السُّورة يؤكِّد المعنى مرَّةً أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 110].

✉وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عمليّاً على ترك الأهل، والوطن.

✉اشتد البلاء من المشركين على المسلمين في مكة، فضيقوا عليهم وآذوهم.

✉فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، واستأذنوه في الهجرة إلى المدينة، ثم مكث ﷺ أياماً، ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ» متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ» أخرجه البخاري.

✉ وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وحمية، وأصحاب فروسية وقوة وشكيمة ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إتاوة أو جباية لقبيلة أو حكومة، فكانوا أعز الناس نفساً، وأشرفهم هممماً، وأرقهم أفئدة، وألينهم قلوباً.

✉بعد أن نجحت بيعة العقبة الثانية، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، طابت نفسه ﷺ، وأصبح الأنصار يمثلون عددًا لا بأس به في المدينة المنوّرة، وَقبِلوا أن يستقبلوا رسول الله ﷺ، وأن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم وأموالهم، بعد كل هذه الأمور العظيمة والتي حدثت في فترة وجيزة جدًّا، جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ يأذن له بفتح باب الهجرة لأصحابه إلى المدينة النبوية.

✉فكل من يستطيع أن يهاجر فليهاجر، بل يجب أن يهاجر؛ الضعفاء والأقوياء، الفقراء والأغنياء، الرجال والنساء، الأحرار والعبيد، هذه الهجرة ليست هروبًا ولا فرارًا، بل كانت استعدادًا لأن هناك مشروع ضخم سيُبْنى على أرض المدينة، ألا وهو إقامة دولة إسلاميّة.

✉ولم تكن الهجرة أمرًا سهلاً ميسورًا، ولم تكن كذلك ترك بلد ما إلى بلد آخر ظروفه أفضل، وأمواله أكثر، ليست عقد عمل بأجر أعلى، الهجرة كانت تعني ترك الديار، وترك الأموال، وترك الأعمال، وترك الذكريات، الهجرة كانت ذهابًا للمجهول، لحياة جديدة، لا شك أنها ستكون شاقة، وشاقة جدًّا.

✉الهجرة كانت تعني الاستعداد لحرب هائلة، حرب شاملة، ضد كل المشركين في جزيرة العرب، بل ضد كل من يحارب الإسلام من العالمين، الحرب التي صورها الصحابي الجليل العباس بن عبادة الأنصاري على أنها الاستعدادُ لحرب الأحمر والأسود من الناس.

✉وأمر ﷺ جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، فقال ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى يَقُولُونَ: يَثْرِبَ، وَهِيَ المدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ» متفق عليه.

✉لكنه ﷺ لم يبدأ في الهجرة إلا بعد أن هاجر الجميع إلى المدينة، لم يكن من همِّه ﷺ أن ينجو بنفسه، وأن يُؤَمِّنَ حاله، بل كان كل همّه ﷺ أن يطمئن على حال المسلمين المهاجرين، كان ﷺ يتصرف كالرُّبَّان الذي لا يخرج من سفينته إلا بعد اطمئنانه على أن كل الركاب في أمان، القيادة ليست نوعًا من الترف أو الرفاهية، القيادة مسئولية، القيادة تضحية، القيادة أمانة.

فخرج أصحابه ﷺ إلى المدينة أرسالاً، أفرادًا وجماعات، متخفين، مشاة، وركباناً رضي الله عنهم، وبدأت المدينة تستقبل المهاجرين الذين فرّوا بدينهم من مكّة.

**📄وقصص المهاجرين كثيرة وعظيمة، ولكن أودُّ الوقوف على ثلاث قصص فقط، تكشف لنا عن طبيعة الهجرة وعن طبيعة المهاجرين.**

**❶قصة هجرة آل سلمة:**

كان أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه من أوائل من هاجر، كما كان رضي الله عنه من أوائل من أسلم، وكان هو وزوجته أم سلمة رضي الله عنها من قبيلة واحدة هي قبيلة بني مخزوم، ومع الشرف والمكانة والوضع الاجتماعي إلا أنهم تركوا كل ذلك، وانطلقوا إلى المدينة، ولكن بعد أن خرج الرجل وزوجته وابنهما سلمة لحقت بهم عائلة أم سلمة وقالوا لأبي سلمة: هذه نفسك غَلَبْتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نَتْرُكُك تسير بها في البلاد؟ فغلبوه على زوجته فأخذوها، وانطلق أبو سلمة هو وحيدًا إلى المدينة، وأُخذ ابنها الوحيد منها، وبقيت بمفردها تحمل في قلبها كل هذه الآلام، فكانت -رضي الله عنها- تخرج كل يوم إلى الأبطح -حيث المكان الذي شهد مأساة التفريق بينها وبين زوجها وابنها- وتظل تبكي من الصباح إلى المساء، ثم تعود إلى بيتها آخر الليل، وظلت تفعل ذلك كل يوم، سنة كاملة أو قريبًا من سنة، لا لشيء إلا لأنهما آمنا بالله رب العالمين، لكن هذا هو الطريق الطبيعيّ للجنة، وهذه هي الأثمان التي تشترى بها هذه الجنة... "أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ"، وبعد عام رقَّ قلبُهم عليها أعطوها الغلام، ورأت ابنها واحتضنته بشده بعد عام من الفراق، ثم ما استطاعت صبرًا على فراق زوجها، وانطلقت به بمفردها إلى المدينة، لقد سخّر لها رجلاً مشركًا، سبحان الله! رآها عثمان بن طلحة -وكان ما زال على شركه- وهي بالتنعيم على مسافة حوالي خمسة كيلو مترات من مكّة، فقال لها: إلى أين؟ فقالت: أريد زوجي في المدينة، قال: أوَ معك أحد؟ قالت: لا والله، إلا الله ثم ابني هذا، فتحركت النخوة في قلب الرجل المشرك، وأظهر مروءة عالية وقال لها: والله لا أتركك أبدًا حتى تبلغي المدينة، خمسمائة كيلو متر وعثمان بن طلحة يسير على قدميه ليصل بامرأة وحيدة من مكّة إلى المدينة، وهو لا يرتبط معها بصلة قرابة، وهي وزوجها على دين يكرهه ويحاربه، لكنها النخوة والمروءة، ولما وصلوا إلى قباء، قال عثمان لأم سلمة: زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، فدخلت السيدة أم سلمة

إلى المدينة، وعاد عثمان بن طلحة إلى مكّة ماشيًا دون أن ينتظر كلمة شكر أو ثناء من زوج السيدة أم سلمة أو أحد المسلمين، والحمد لله أن الله قد منَّ عليه بالإسلام في العام السابع من الهجرة.

**❷قصة هجرة عمر بن الخطاب:**

وهي قصة مختلفة جدًّا عن هجرة بقية الصحابة؛ فبينما كان الصحابة عمومًا يهاجرون سرًّا هاجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهرًا، لوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المسجد الحرام وقال بصوت مرتفع: يا معشر قريش، من أراد أن تثكله أمه، أو يُيَتِّمَ ولدُه، أو تُرَمِّل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي، وقعت الرهبة في قلوب الكافرين، فلم يخرج خلفَ عمر أحدٌ، بل أكثر من ذلك لقد هاجر مع عمر رضي الله عنه عشرون من ضعفاء الصحابة، وما استطاع أحد من المشركين أن يقترب منهم، (وصدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ يقول: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة)، يقول هذا الكلام وهو متقلّد سيفه، وفي يده الأخرى عدة أسهم، فلم يخرج خلفه أحد، وهكذا هاجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه علانية.

**❸هجرة عياش بن أبي ربيعة:**

كان عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه ممن هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعياش بن أبي ربيعة هو أخو أبي جهل من أمه، وبعد أن وصل عياش إلى المدينة علم أبو جهل بهجرته، فماذا فعل أبو جهل؟ لقد أخذ أخاهم الثالث الحارث بن هشام وانطلق إلى المدينة المنوّرة، سفر بعيد (خمسمائة كيلو متر) وعملية خطرة، ومجازفة كبيرة، وبذل ومجهود وعرق ووقت (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ) [النساء: 104]، وصل أبو جهل إلى قباء والتقى بأخيه عياش بن أبي ربيعة في وجود عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال أبو جهل: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرقَّ لها عياش، وكان بارًّا جدًّا بأمه، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكّة لاستظلت، فقال عياش (وقد خُدِع بكلام أخويه): أبرُّ أمي، ولي مال هناك آخذه، قال عمر: خذ نصف مالي ولا تذهب معهما، ولكن أَبَى عياش إلا أن يعود ليبرَّ قسم أمه، وخرج عياش وأخواه أبو جهل والحارث بن هشام إلى مكّة، حتى إذا ابتعدوا عن المدينة دبر الأخوان الكافران خدعة وأمسكا بعياش وقيداه بالحبال، ودخلوا به مكّة موثقًا، ثم قالا لأهل مكّة: يا أهل مكّة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا، وحُبِس عياش بن أبي ربيعة فترة من الزمان، ولم ينجُ إلا بعد أن أرسل له رسول الله ﷺ أحد الصحابة وهو الوليد بن الوليد لإنقاذه في مغامرة رائعة.

✉وأقام ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له بالهجرة من مكة إلى المدينة، فكان أول من هاجر من مكة إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم عامر بن ربيعة، وامرأته ليلى، ثم عبد الله بن جحش وغيرهم.

ثم خرج الصحابة أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً رضي الله عنهم، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَبِلاَلٌ رَضِيَ الله عَنْهُمْ). أخرجه البخاري.

وهكذا هاجر المسلمون من مكّة، وقد هاجر معظم المسلمين الذين استطاعوا الهجرة في شهري المحرم وصفر من السنة الرابعة عشرة من النبوة، أي بعد بيعة العقبة الثانية بشهر واحد أو أقل، ولم يبقَ في مكّة إلا ثلاثة فقط؛ رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه وعائلته، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان بقاء أبي بكر وعلي رضي الله عنهما بأمر من رسول الله وقلة من المسلمين حبسهم المرض أو العذر، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، ولكن رسول الله ﷺ يأمره بالبقاء والتريث، وحين سمع الذين بالحبشة من المسلمين بهجرة إخوانهم إلى المدينة رجع بعضهم إلى مكة، ثم هاجر بعضهم وحبس كفار مكة بعضهم، وبقي جعفر بن أبي طالب في الحبشة في عدد من المهاجرين، ثم قدموا على الرسول ﷺ في المدينة عام خيبر سنة سبع من الهجرة، ولم تكن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة سهلة بل كانت من أصعب الأمور على الكفار، وعلى المسلمين، فقد كان كفار مكة يمنعون المهاجرين بأساليب قاسية، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المحن والأذى، ليردوهم عن الإسلام والهجرة، لكنهم صبروا وواجهوا أعظم الأخطار، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وبلادهم في سبيل دينهم وكل منهم يعلم أنه في الطريق مستباح الدم والمال راكب لقطار الموت في سبيل الله، ونصرة رسوله ﷺ :(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر/٨]، فالمهاجرون تركوا وبذلوا كل شيء من أجل الدين، والأنصار استقبلوا وبذلوا كل شيء في سبيل الله، فرضي الله عنهم ورضوا عنه:(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة/١٠٠].

**قريش في دار الندوة وقرارهم بقتل النبي ﷺ:**

علمت قريش أنه كلَّما مرَّ الوقت اقتربت ساعة الصفر التي سيغزو فيها المؤمنون مكة؛ لكن زعماء قريش كانوا يُدركون -أيضًا- أن ساعة الصفر هذه لن تكون إلا بعد أن يُهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ويُوَحِّد صفوفه، ويُجَهِّز جيوشه، ثُمَّ يأتي من جديد إلى مكة.

⇦في صباح يوم الخميس السادس والعشرين من صفر من السنة الرابعة عشر للبعثة تمَّ عقد أخطر اجتماع في تاريخ دار الندوة، وكان اجتماعًا طارئًا حضره ممثِّلون عن كل القبائل القرشية عدا بني هاشم

✉فعن عبد الله بن عباس، قال: لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس لعنه الله في هيئة شيخ جليل عليه بتٌّ له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ؛ فَإِنَّا وَاللهِ مَا نَأْمَنُهُ عَلَى الْوُثُوبِ عَلَيْنَا فِيمَنْ قَدِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِنَا، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا، قَالَ: فَتَشَاوَرُوا ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ [أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ] مِنْهُمْ: احْبِسُوهُ فِي الْحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عَلَيْهِ بَابًا، ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ مَا أَصَابَ أَشْبَاهَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ زُهَيْرًا وَالنَّابِغَةَ، وَمَنْ مَضَى مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ حَتَّى يُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لاَ وَاللهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، وَاللهِ لَئِنْ حَبَسْتُمُوهُ كَمَا تَقُولُونَ لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُهُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ الَّذِي أَغْلَقْتُمْ دُونَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَلأَوْشَكُوا أَنْ يَثِبُوا عَلَيْكُمْ فَيَنْزِعُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يُكَاثِرُوكُمْ بِهِ حَتَّى يَغْلِبُوكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ فَانْظُرُوا فِي غَيْرِهِ، فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: نُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَنَنْفِيهِ مِنْ بِلاَدِنَا، فَإِذَا أُخْرِجَ عَنَّا فَوَاللهِ مَا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ وَلاَ حَيْثُ وَقَعَ إِذَا غَابَ عَنَّا وَفَرَغْنَا مِنْهُ فَأَصْلَحْنَا أَمْرَنَا وَأُلْفَتَنَا كَمَا كَانَتْ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لاَ وَاللهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيثِهِ، وَحَلاَوَةَ مَنْطِقِهِ، وَغَلَبَتَهُ عَلَى قُلُوبِ الرِّجَالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ، وَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا أَمِنْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَيَغْلِبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ حَتَّى يُتَابِعُوهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَيْكُمْ حَتَّى يَطَأَكُمْ بِهِمْ فِي بِلاَدِكُمْ فَيَأْخُذُ أَمْرَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا أَرَادَ، دَبِّرُوا فِيهِ رَأْيًا غَيْرَ هَذَا، قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ: وَاللهِ إِنَّ لِي فِيهِ لَرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بَعْدُ، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْحَكَمِ؟ قَالَ: أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلِيدًا [قَوِيًّا] نَسِيبًا [ذو حَسَبٍ ونَسَبٍ] وَسِيطًا [أَشْرَفِهم وأَحْسَبِهم] فِينَا، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ فَتًى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَيْهِ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَيَقْتُلُوهُ فَنَسْتَرِيحُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ جميعًا، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جميعًا، فَرَضُوا مِنَّا بِالْعَقْلِ [الدية يأتون بالإبل فيَعْقِلونها بفِناء وَلِيِّ المقتول] فَعَقَلْنَاهُ لَهُمْ. قَالَ فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ، هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي لاَ رَأْيَ غَيْرَهُ، فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ.

✉وبهذا اتفق زعماء قريش مع إبليس على ارتكاب أكبر جريمة بعد الشرك في تاريخ البشرية، وهي قتل الرسول ﷺ، وكان الملهم للأغلبية في هذا الجرم الكبير شيطانان: شيطان الأنس أبو جهل، وشيطان الجنّ إبليس! وخرج زعماء قريش من الاجتماع ينتقون من قبائلهم العناصر التي ستقوم بتنفيذ عمليَّة اغتيال رسول الله ﷺ.

**عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم:**

✉إن القوم ائتمروا بالنبى صلّى الله عليه وسلّم ليقتلوه، ولكن الله تعالى أعلم النبى ﷺ

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال/٣٠].

بالرَّغم من كلّ الأسباب الَّتي اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنَّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنَّما كان كاملَ الثِّقة في الله، عظيم الرَّجاء في نصره، وتأييده، دائم الدُّعاء بالصِّيغة الَّتي علَّمه الله إيَّاها. قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 80]. وفي هذه الآية الكريمة، «دعاء يعلِّمه الله لنبيِّه ليدعوه به، ولتتعلَّم أمَّته كيف تدعو الله، وكيف تتَّجه إليه؟ دعاء بصدق المُدْخَل، وصدق المُخْرَج، كنايةً عن صدق الرِّحلة كلِّها؛ بدئها، وختامها، أوَّلها، وآخرها، وما بين الأوَّل والآخر، وللصِّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثَّبات، والاطمئنان والنَّظافة، والإخلاص. ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا﴾، وهيبةً أستعلي بهما على سلطان الأرض، وقوَّة المشركين، وكلمة تصوِّر ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾، والاتِّصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرةً، واللُّجوء إلى حماه.

وأن دخول الصدق كان بدخول المدينة المنورة، والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة، كما فسر قتادة، وهكذا كان خروجه من مكة المكرمة وهي أحب أرض الله تعالى إليه لدعوة الحق ولنصرته وإعزازه، وكان دخوله المدينة المنورة صدقا، لأنه بسبب إرادة نصرة الحق، وإعلاء شأنه، فخروجه صدق، ودخوله صدق، وكلاهما حق.

فتفرق القوم وهم مجمعون على قتل النبي ﷺ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

عنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنّهَا قَالَتْ كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النّهَارِ إمّا بُكْرَةً وَإِمّا عَشِيّةً حَتّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الّذِي أَذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا، قَالَتْ فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ مَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السّاعَةَ إلّا لِأَمْرٍ حَدَثَ، قَالَتْ فَلَمّا دَخَلَ تَأَخّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إلّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَخْرِجْ عَنّي مَنْ عِنْدَك» ; فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إنّمَا هُمَا ابْنَتَايَ وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاك أَبِي وَأُمّي فَقَالَ «إنّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ»، قَالَتْ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ «الصّحْبَةَ»، قَالَتْ فَوَاَللهِ مَا شَعَرْت قَطّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنّ أَحَدًا يَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ حَتّى رَأَيْت أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ ثُمّ قَالَ يَا نَبِيّ اللهِ إنّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَانِ قَدْ كُنْت أَعْدَدْتهمَا لِهَذَا، فَاسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللهِ بْنَ أَرْيقَطَ – هَادِيًا خِرّيتًا – وَالْخِرّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ )الْبُخَارِيّ ، وَكَانَ مُشْرِكًا يَدُلّهُمَا عَلَى الطّرِيقِ فَدَفَعَا إلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ يرعاهما لميعادهما.

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «نم على فراشي وتسَجَّ ببرُدَي هذا الحضرمي الأخضر فنم عليه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلّفَ بَعْدَهُ بِمَكّةَ حَتّى يُؤَدّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَدَائِعَ الّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنّاسِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِمَكّةَ أَحَدٌ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَخْشَى عَلَيْهِ إلّا وَضَعَهُ عِنْدَهُ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما اجتمعوا وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن

محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها، قال: وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، وأنت أحدهم»، وأخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: (وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا، وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) [يس: 9] حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: وما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا، قال: قد خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترونها بكم؟! قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يطلعون فيرون عليّاً على الفراش مستجياً ببرُد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ عُلى الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا، فكان مما أنزل الله من القرآن في ذلك {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30] وقول الله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ) [الطور: 30-31].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَلَمّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُرُوجَ أَتَى أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ فَخَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ لِأَبِي بَكْرٍ فِي ظَهْرِ بَيْتِهِ ثُمّ عَمَدَا إلَى غَارٍ بِثَوْرٍ – جَبَلٌ بِأَسْفَلِ مَكّةَ فَدَخَلَاهُ، فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ ثَلَاثًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ فِيهِ حِينَ فَقَدُوهُ مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ يَرُدّهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ يَكُونُ فِي قُرَيْشٍ نَهَارَهُ مَعَهُمْ يَسْمَعُ مَا يَأْتَمِرُونَ بِهِ وَمَا يَقُولُونَ فِي شَأْنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ ثُمّ يَأْتِيهِمَا إذَا أَمْسَى فَيُخْبِرُهُمَا الْخَبَرَ، وَكَانَ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرْعَى فِي رِعْيَانِ أَهْلِ مَكّةَ، فَإِذَا أَمْسَى أَرَاحَ عَلَيْهِمَا غَنَمَ أَبِي بَكْرٍ فَاحْتَلَبَا وَذَبَحَا، فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ غَدَا مِنْ عِنْدِهِمَا إلَى مَكّةَ، اتّبَعَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ أَثَرَهُ بِالْغَنَمِ حَتّى يُعْفِيَ عَلَيْهِ.

☒ولحرص أبي بكر على سلامة النبي - صلى الله عليه وسلم - واستعداده لأن يَفديه برُوحه؛ فقد رفض أن يدخل الرسول إلى الغار قبله فدخله أبو بكر أولا؛ حتى إذا كان فيه شيء يصيبه هو دون الرسول، فكسحه، ووجد فيه ثقوبا فسدها بشق إزاره، وبقي جحر أو جحران ألقمهما رجليه، ثم دخل رسول الله ﷺ فنام في حجره، ولدغ أبو بكر في رجله، ولكنه لم يتحرك لمكان رسول الله، فسقطت دموعه على وجهه ﷺ؛ فاستيقظ وسأل، فقال: لدغت، فداك أبي وأمي،

فمسحها، بريقه ﷺ فذهب الألم.

أما قريش، فقد جن جنونها حينما تأكَّد لديها إفلات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًّا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة؛ علهم يظفرون بخبرهما، وكان هذا منتهى إيذائهم لعلي، ولما لم يحصلوا من علي على جدوى، جاؤوا إلى بيت أبي بكر وقرَعوا بابه، فخرَجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدري والله أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطَم خدها لَطمة طرَح منها قُرطها.

✉وقَالَتْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، لَمّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ وَمَعَهُ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةُ آلَافٍ فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ، قَالَتْ فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَالَ وَاَللهِ إنّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ، قَالَتْ قُلْت: كَلّا يَا أَبَتِ إنّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا، قَالَتْ فَأَخَذْت أَحْجَارًا فَوَضَعْتهَا فِي كُوّةٍ فِي الْبَيْتِ الّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمّ وَضَعْت عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمّ أَخَذْت بِيَدِهِ فَقُلْت: يَا أَبَتِ ضَعْ يَدَك عَلَى هَذَا الْمَالِ، قَالَتْ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَا بَأْسَ إذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ وَفِي هَذَا بَلَاغٌ لَكُمْ، وَلَا وَاَللهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنّي أَرَدْت أَنْ أُسْكِنَ الشّيْخَ بذلك.

✉وقد وضعت قريش جميع الطرق النافذة من مكة تحت المراقبة المسلحة الشديدة، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدلاً عن كل واحد منهما، لمن يعيدهما إلى قريش حيَّين أو ميّتَين، كائنًا من كان. وقد وصل بعض المطاردين إلى باب الغار، ولكن الله أغشى أبصارهم؛ روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كُنْتُ مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الغارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا أنا بأَقْدامِ القَوْمِ، فَقُلتُ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، لو أنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنا، قالَ: اسْكُتْ يا أبا بَكْرٍ، اثْنانِ اللَّهُ ثالِثُهُما.

قال تعالى (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة/٤٠].

✉وهذه من جنود الله – عزَّ وجلَّ – التي يخذل بها الباطل، وينصر بها الحق؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31].

✉وقد كانت هذه معجزة أكرم الله بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقد رجع المطاردون حين لم يبقَ بينه وبينهم إلا خطوات معدودة، فلما توقَّفت أعمال الملاحقة والتفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيَّأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه للخروج إلى المدينة.

✉وكانا قد استأجرا عبد الله بن أُرَيقِط الليثي كما أشرنا، وكان هاديًا ماهرًا بالطريق وكان على دين كفار قريش، وأمِناه على ذلك، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال براحلتيهما، فلما كانت ليلة الاثنين - غرة ربيع الأول سنة 1هـ / 16 سبتمبر سنة 622م - حَتّى إذَا مَضَتْ الثّلَاثُ وَسَكَنَ عَنْهُمَا النّاسُ أَتَاهُمَا صَاحِبُهُمَا (عبد الله بن أريقط) الّذِي اسْتَأْجَرَاهُ بِبَعِيرَيْهِمَا وَبَعِيرٍ لَهُ وَأَتَتْهُمَا أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِسُفْرَتِهِمَا، وَنَسِيَتْ أَنْ تَجْعَلَ لَهَا عِصَامًا فَلَمّا

ارْتَحَلَا ذَهَبَتْ لِتُعَلِّقَ السِّقْرَةَ فَإِذَا لَيْسَ لَهَا عِصَامٌ فَتَحِلّ نِطَاقَهَا فَتَجْعَلُهُ عِصَامًا، ثُمّ علقتها بِهِ وهذا سَبَب تَسْمِيَة أَسْمَاءُ بِذَات النّطَاقَيْنِ، لأَنّهَا شَقّتْ نِطَاقَهَا بِاثْنَيْنِ فَعَلّقَتْ السّفْرَةَ بِوَاحِدٍ وانتطقت بِالْآخرِ.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - وارتحل معهما عامر بن فُهَيرة، وأخذ بهم الدليل – عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل، في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يَألفه الناس، اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا.

**دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكَّة:**

وقد دعا النَّبي صلى الله عليه وسلم عند خروجه من مكَّة إلى المدينة قائلاً: «الحمد لله الَّذي خلقني ولم أَكُ شيئاً! اللَّهمَّ أعنِّي على هول الدُّنيا، وبوائق الدَّهر، ومصائب اللَّيالي والأيام! اللَّهمَّ اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذَلِّلني، وعلى خلقي فقوّمني، وإليك رب فحبِّبني، وإلى النَّاس فلا تكلْني! ربَّ المستضعفين! وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الَّذي أشرقت له السَّموات، والأرض، وكُشِفت به الظُّلمات، وصلُح عليه أمر الأوَّلين، والآخرين أن تحلَّ عليَّ غضبك، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك، وَفُجَاءَة نقمتك، وتحوُّل عافيتك، وجميع سخطك، لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت، لا حول، ولا قوَّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (9234)].

ووقف الرَّسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكَّة، وقال: «والله إنَّكِ لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منكِ ما خَرَجْتُ» [الترمذي (3925) وأحمد (305/4) وابن ماجه (3108)].

ثمَّ انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه، وقد حفظهما الله من بطش المشركين، وصرفهم عنهما.

**ومر ﷺ في طريقه بخيمة أم معبد الخزاعية:**

فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعيِّ رضي الله عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكَّة، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة، هو وأبو بكر، ومولى أبي بكرٍ عامر بن فهيرة رضي الله عنه، ودليلهما اللَّيثي عبد الله بن أريقط، مرُّوا على خيمة أمِّ معبد الخزاعيَّة، وكانت بَرْزَة، جَلْدَة، تحتبي بفناء القبَّة، ثمَّ تسقي وتطعم، فسألوها لحماً، وتمراً؛ ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاةٍ في كَسْر الخيمة ، فقال: «ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبد؟!» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم، قال: «فهل بها من لبنٍ؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمِّي! نعم إن رأيت بها حَلْباً؛ فاحلبها! فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت عليه، ودَرَّت، واجترَّت ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ الرَّهط، فحلب فيها ثجّاً؛ حتَّى علاه البهاء، ثمَّ سقاها حتَّى رَوِيت، وسقى أصحابه؛ حتَّى رَوَوْا، وشرب آخرهم صلى الله عليه وسلم، ثمَّ أراضوا، ثمَّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ حتَّى ملأ الإناء، ثمَّ غادره عندها، ثمَّ بايعها، وارتحلوا عنها.

وجاء في حديث حبيش بن خالد، - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة، مرَّ - عليه الصلاة والسلام - على خيمة أم معبد، - رضي الله عنها -، ورأت من كراماته ﷺ ، ثم بايعها على الإسلام، وانطلق، ولما رجع زوجها ووجد لبنًا أعجبه ذلك وقال: من

أين لك هذا يا أم معبد والشاء عازب حائل ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صِفِيه لي يا أم معبد، قالت: رأيتُ رَجُلاً ظاهِرَ الوَضَاءَةِ أَبلَجَ الوَجهِ، حَسَنَ الخَلقِ لَم تَعِبهُ تَجِلَّةٌ (عظم البطن)، ولَم تُزرِيهِ صُعْلَةٌ (صغر الرأس)، وَسِيمٌ، قَسِيمٌ، في عَينِهِ دَعَجٌ(سواد)، وفي أَشفَارِهِ وَطفٌ (طويل شعر العين)، وفي صوتِه صَهَلٌ(بحَّة و حُسن)، وفي عُنقِه سَطَعٌ (طول) ، وفي لِحيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ أَقرَنُ (حاجباه طويلان و مقوَّسان)، إن صمَتَ فَعَلَيه الوَقَارُ، وإن تَكَلَّم سماه وعَلَاهُ البَهَاءُ، أَجمَلُ النَّاسِ وأَبهَاهُ مِن بَعيدٍ، وأَحسَنُه وأجملُه مِن قَريبٍ، حُلوُ المَنطِقِ، فَصلاً لا نَزرَ ولا هَذرَ(كلامه بَيِّن وسط ليس بالقليل ولا بالكثير)، كأَنَّ منطقَه خَرَزَاتُ نَظمٍ، يَتَحَدَّرنَ، رَبعَةٌ(ليس بالطويل البائن ولا بالقصير)، لا تَشنَؤهُ مِن طولٍ، ولا تَقتَحِمُهُ عَينٌ مِن قِصَرٍ، غُصنٌ بينَ غُصنَين، فهو أَنضَرُ الثلاثةِ مَنظَرًا، وأحسنُهم قَدرًا، له رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إن قال سَمِعُوا لِقَولِه، وإن أمَر تَبَادَرُوا إلى أمرِه، مَحفُودٌ، مَحشُودٌ، لا عَابِسٌ ولا مُقتَصِدٌ. الحديث أخرجه الطبراني في الكبير (3605)، والحاكم في المستدرك (3/9-10)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (282-287)

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذُكِرَ لنا من أمره ما ذُكِر بمكة، ولقد هممتُ أن أصحبه، ولأفعلَنَّ إن وَجدتُ إلى ذلك سبيلا، وَأَصْبَحَ صَوْتٌ بِمَكَّةَ عَالِيًا يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَرَوْنَ الْقَائِلَ:

جَزَى اللهُ رَبّ الْعَرْشِ خَيْرَ جَزَائِه ** رَفِيقَيْنِ حَلّا خَيْمَتَيْ أُمّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلَا بِالْبِرّ وَارْتَحَلَا بِه **وَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمّدِ

لِيَهْنَ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ فَتَاتِهِمْ ** وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ** فَإِنّكُمْ إنْ تَسْأَلُوا الشّاءَ تَشْهَدِ

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: مَا دَرَيْنَا أَيْنَ تَوَجّهَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ الْجِنّ مِنْ أَسْفَلِ مَكّةَ فَأَنْشَدَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَالنّاسَ يَتْبَعُونَهُ وَيَسْمَعُونَ صَوْتَهُ وَلَا يَرَوْنَهُ حَتّى خَرَجَ مِنْ أَعْلَاهَا قَالَتْ فَلَمّا سَمِعْنَا قَوْلَهُ عَرَفْنَا حَيْثُ تَوَجّهَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَنّ وَجْهَهُ إلَى الْمَدِينَةِ.

**قِصّةُ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ:**

وَلَمّا يَئِسَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ الظّفَرِ بِهِمَا جَعَلُوا لِمَنْ جَاءَ بِهِمَا دِيَةَ(مئة ناقة) كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَجَدّ النّاسُ فِي الطّلَبِ وَاَللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمّا مَرّوا بِحَيّ بَنِي مُدْلِجٍ مُصْعِدِينَ مِنْ قُدَيْد بَصُرَ بِهِمْ رَجُلٌ مِنْ الْحَيّ فَوَقَفَ عَلَى الْحَيّ فَقَالَ لَقَدْ رَأَيْتُ آنِفًا بِالسّاحِلِ أَسْوِدَةً مَا أُرَاهَا إلّا مُحَمّدًا وَأَصْحَابَهُ فَفَطِنَ بِالْأَمْرِ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ الظّفَرُ لَهُ خَاصّةً وَقَدْ سَبَقَ لَهُ مِنْ الظّفَرِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ فَقَالَ بَلْ هُمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ خَرَجَا فِي طَلَبِ حَاجَةٍ لَهُمَا ثُمّ مَكَثَ قَلِيلًا ثُمّ قَامَ فَدَخَلَ خِبَاءَهُ وَقَالَ لِخَادِمِهِ أُخْرُجْ بِالْفَرَسِ مِنْ وَرَاءِ الْخِبَاءِ وَمَوْعِدُك وَرَاءَ الْأَكَمَةِ ثُمّ أَخَذَ رُمْحَهُ وَخَفَضَ عَالِيَهُ يَخُطّ بِهِ الْأَرْضَ حَتّى رَكِبَ فَرَسَهُ فَلَمّا قَرُبَ مِنْهُمْ وَسَمِعَ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ وَرَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَا يَلْتَفِتُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ قَدْ رَهِقَنَا فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَسَاخَتْ يَدَا فَرَسِهِ فِي الْأَرْضِ فَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنّ الّذِي أَصَابَنِي بِدُعَائِكُمَا فَادْعُوا اللهَ لِي وَلَكُمَا عَلَيّ أَنْ أَرُدّ النّاسَ عَنْكُمَا فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَطْلَقَ وَسَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابًا فَكَتَبَ لَهُ أَبُوفهيرة(له سوار كسر) بِأَمْرِهِ فِي أَدِيمٍ وَكَانَ الْكِتَابُ مَعَهُ إلَى يَوْمِ فَتْحِ مَكّةَ فَجَاءَهُ بِالْكِتَابِ فَوَفّاهُ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَالَ يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرّ وَعَرَضَ عَلَيْهِمَا الزّادَ وَالْحِمْلَانِ فَقَالَا: لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ وَلَكِنْ عَمّ عَنّا الطّلَبَ فَقَالَ قَدْ كَفَيْتُمْ وَرَجَعَ فَوَجَدَ النّاسَ فِي الطّلَبِ فَجَعَلَ يَقُولُ قَدْ اسْتَبْرَأْتُ لَكُمْ الْخَبَرَ وَقَدْ كَفَيْتُمْ مَا هَاهُنَا وَكَانَ أَوّلُ النّهَارِ جَاهِدًا عَلَيْهِمَا وَآخِرُهُ حَارِسًا لَهُمَا.

قال ابن عبد البرّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى، عن الحسن: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلـمَّا أُتِيَ عمرُ بسواري كسرى، ومِنْطَقَته وتاجه؛ دعا سراقة بن مالكٍ، فألبسه إيَّاها.

سبحان مقلِّب القلوب: كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسليمه لزعماء مكَّة؛ لينال مئة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عَقِب، ويصبح يردُّ الطلب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل لا يلقى أحداً من الطَّلب إلا ردَّه، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه، فلـمَّا اطمأنَّ إلى أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وصل إلى المدينة المنوَّرة، جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصَّته، وقصَّة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة؛ حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكَّة، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج، ورئيسهم.

✉ولقِي النبي ﷺ في طريق هجرته للمدينة بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمي، ومعه نحو ثمانين بيتًا - وكانوا على الشرك - فدعاهم الرسول إلى الإسلام؛ فأسلم بريدة وأسلموا، وصلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العشاء الآخرة، فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه، حتى قدِم على رسول الله بعد أُحد.

المراجع:


❶فقه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة.

❷روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❸زاد المعاد في هدي خير العباد.

❹السيرة النبوية لابن هشام.

❺السيرة للدكتورعلي الصلابي.